بسم الله الرحمن الرحيم

فَفِي لَيلةٍ مِنْ لَيالي صَفَاءِ البَالِ، وَهُدُوءِ الحالِ، وأنَا مُقِيمٌ في سَكَنِ الضّيوفِ بَالمِكْتَبِ التَّعَاوني والمِكْتَبةِ العِلْمَيةِ بمحَافَظةِ صَامْطَة بِجِوَارِ مَسْجِدِ وَبَيْتِ شَيْخِنَا العَلاّمَةِ زَيْدِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ هَادِي مَدْخَلِي حَفِظَهُ اللهُ تَعَالى وَرَعَاه، وجَعَلَ الجنَّة دَارَهُ وَمَثْوَاه، سَبَحَتْ بِيَ الأفْكَارُ فِيْ بُحُورِ الأخْبَارِ، وَكَمْ عَاشَ فِيْ تِلْكَ البِّقَاعِ مِنْ أهَلِ التَّوحِيدِ والإتِّبَاع، وَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ صِدْقِ الانْتَصَارِ للدِّين، وإحْيَاءِ سُنَّةِ سَيْدِ المرْسَلِينِ، وَعَلى رَأسِهِم مُجَدِّدِ الدَّعْوةِ السَّلَفِيةِ فِيْ الدِّيَارِ الجَنُوبِيَّةِ، فَضِيلةُ الشَّيخِ العَلاَّمةِ والبَحْرِ الفَهَّامَةِ، الشِّهَابِ السَّمَاوِيْ الشَّيخ عَبْدِاللهِ بنْ مُحَمَّدِ القَرْعَاوِي، وَمَا قَامَ بِهِ مِنْ نَشْرِ التَّوحِيدِ والسُنَّةِ، وَالدَّعْوةِ إلى سَبِيلِ الجَنَّةِ، فَكَان رَجُلاً بَألْفٍ مِنَ الرَّجَال، لَهُ صَوْلةٌ وَجَوْلةٌ في كِلّ مَجَال، وتَذكَّرتُ جُهُودَ شَيْخِنَا مُحَمَّدِ بنِ مُسْلِمِ بن عُثَيمين وَكَان حِينَذاك في أراضِيَها، وَهُو فقيه تلك النَّواحِي وَقَاضِيْهَا، وَمَا عُلِمَ عَنْهُ مِنْ قُوةِ الإنْكَارِ، وَحَرْبِ الفُجَّارِ، وقُوةِ الشَّكِيمةِ، وعُلُوِّ العَزِيمةِ، واسْتَعْرَضَ فِكْرِي بعضَ مَنْ تَخَرَّجَ مِنْ مَدْرَسةِ الشَّيخِ القَرعَاوِي مِنْ نَوابِغ الطُّلابِ، ومَفَاخِرِ الأصْحَابِ، عَلَى رَأسِهِم الأدِيبِ الأرِيبِ، والنَّابِغِ العَجِيب: حَافِظ حَكَمِي، ونَاصِر خَلُوفَة، وجَمَاعاتٍ جَاوزُوا الآلافَ، وتَعْسُر بِذْكرِهِم هَذِه الصِّحَاف، وَمِنْهُم شَيْخُنَا العَالِمُ العَامِل، والفَاهِمُ الكَامِل، غَيْثُ السُّنَةِ الوسمي، أَحْمَدُ بنْ يَحْيَى النَّجْمِي، رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ أجْمَعِين، وَرَفَعَ دَرَجَاتِهِم فِيْ عِلِّيين، فَتَذَكَّرتُ أولئكَ الجَيلِ، وتَأمَّلتُ فِيْ جُهُودِ ذَلِكَ الرَّعِيلِ، فَاسْتَوحَشْتُ مِنْ غُرْبَةِ الزَّمَانِ والمِكَانِ، مَعْ تَعَاقُبِ مَوتِ العُلَماءِ أهلِ السُنَة والقُرْآنِ، وَفَجائعِ الدُّهُورِ، وعَجَائبِ العُصُورِ، واشْتِدادِ الكُرْبَة، واسْتِحْكَامِ الغُرْبَةِ، فَأنْشَدتُ هَذِهِ الأبياتِ، بَعْدَمَا عَاف مِنِّي الجنبُ البَيَاتِ، مُسْتَأنِسَاً بِقُرْبِ شَيْخِنَا الزَّكِيِّ العَلِيِّ: زَيدِ بنِ مُحَمَّدِ مَدْخَلِي، وَمَا أتْحَفَنِي بِهِ مِنْ كَرَمِ الضِّيافِةِ، وَالْعِنَايةِ واللَّطَافَةِ، وَغُرَرِ الفَوَائِدِ، وَنَوَادِرِ الفَرَائدِ، فَبِمِثْلِهِ وَمِثْلِ مَجَالِسِهِ تَخِفُّ وطَأةِ الزَّمَانِ، وَتَزُولُ وَحْشَةُ القُلُوبِ في الأبْدَانِ، فَأقُولُ:

١ رَعَى اللهُ أهْدَابَ العِيونِ السَّوَاهِرِ وَقَدْ حارَبَتْ نَفْسِي سُكُونَ المَيَاثِرِ

٢ وَجَاذَبْتُ أنْفَاسِي وَقلَّبتُ فِكْرَتِي وَأرْهَقْتُ أسْنَانِي بِقَرْعِ الأظَافِرِ

٣ وَفَاضَ لَهِيبُ الشَّوْقِ مِنْ حَوْضِ مُقْلَتِي وَغِيضَتْ بماءِ الدَّمْعِ كُلُّ المَحَاجِرِ

٤ أحِنُّ إلى عَصْرٍ تَصَرَّمَ وانْقَضَى وَغَابَ بِأعْلامِ الأنَامِ الأكَابِرِ

٥ وَهُـم ثُلّـةٌ كَـانُوا عَلَـى العِلْـمِ والتُّقَـى حُمَـاةُ حِيـاضِ الـدِّينِ مِـنْ كُـلّ غَـادِرِ

٦ فَكَـــمْ وقَفُـــوا للهِ وَقْفَـــةَ صَـــادِقٍ وَنَـادَوْا بِصَـوتِ الحَـقِّ فَـوقَ المَنَـابِرِ

٧ وَصَـالُوا عَلَـى أهْـلِ الضَّـلالِ وَبَيَّنُـوا ضَـــلالاتِهِم فِيْ كُـــلِّ نَجْـــدٍ وَغَـــائِرِ

٨ وَيَـــدْعُونَ للتَّوحِيـــدِ فِي كُـــلِّ مَحْفَـــلٍ وَيَنْهَـونَ عَـنْ شِـركِ العُـداةِ الكَـوَافِرِ

٩ وَنَـادَوْا إلى المعْـرُوفِ فِيْ كُـلِّ لَحْظَـةٍ كَمَـا أنْكَـرُوا جَهْـراً جَمِيـعِ المَنَـاكِرِ

١٠ ويُحْيُـــونَ أعْـــلامَ النُّبُـــوةِ والهُـــدَى وَذَاكَ لَعَمْـرِي مِـنْ عَظِـيمِ المَفَـاخِرِ

١١ وَأحْيَـوا رِيـاضَ العِلـمِ بِـالعِلْمِ والتُّقَـى بِأفْئِـــدةٍ مِثْـــلَ البّحِـــارِ الزَّوَاخِـــرِ

١٢ فَمَـــا بَـــينَ تَفْسِـــيرٍ وَفِقْـــهٍ وَسُـــنَّةٍ وَنَقْـــضٍ لأقْـــوَالِ الغُـــواةِ الأصَـــاغِرِ

١٣ وَتَقْسِـــيمِ مِـــيرَاثٍ وَنَحْـــوٍ وَحِكْمَـــةٍ وَسَـــرْدٍ لأخْبَـــارِ الأوُلى وَالأوَاخِـــرِ

١٤ كَـــأنَّهُمُ الأقْمَـــارُ فِيْ كُـــلِّ مَجْلِـــسٍ تَشِـــعُّ بِنُـــورٍ مَـــعْ بَيَـــاضِ الـــدَّفَاتِرِ

١٥ وطلابُهُـــمْ أرْبَـــابُ فَهْـــمٍ وَهِمَّـــةٍ يَرُوحُـــونَ أمْثَـــالَ الطُّيُـــورِ البَـــوَاكِرِ

١٦ يَجِيئُـــونَ بِـــالأقْلامِ عُـــدّةَ فَـــارِسٍ كِنَانَتُـــه إئـــذَّاك سُـــودُ المحَـــابِرِ

١٧ وإنْ أظْلَـــمَ اللَّيـــلُ البَهِـــيمِ تَنَبَّهُـــوْا وَقَـــامُوا قِيـــامَ الصَّـــادِقِينَ الصَّـــوَابِرِ

١٨ فَكَـــمْ سَـــكَبُوا للهِ دَمْعَـــةَ آيِـــبٍ وَكَـــمْ لَهَجُـــوا بِالحَمْـــدِ قَولَـــةَ شَـــاكِرِ

١٩ وَكَـــمْ عَفَّـــرُوا تِلْـــكَ الجِبَـــاهَ بِسَـــجْدَةٍ أضَـــاءتْ بِهَـــا عِنْـــدَ العِيُـــونِ النَّـــوَاظِرِ

٢٠ وَيَتْلُـــونَ قَـــولَ اللهِ خَوْفَـــاً وَرَغْبَـــةً بِصَـــوتٍ يُقَطِّعُـــهُ نَحِيـــبُ الحَنَـــاجِرِ

٢١ وإنْ أصْـبَحُوا زَادُوا مِـنَ الفَضْـلِ قُرْبَـةً وَلَمْ يُضْـعفِ الأبْـدَانَ صَـوْمُ الهَـوَاجِرِ

٢٢ فَقَـــدْ أفَلُـــوا مِـــنْ بَعْـــدِ مَجْـــدٍ وَعِـــزَّةٍ وَصَـارَتْ شُمُـوس العِلـمِ جَـوفَ المقَـابِرِ

٢٣ فَـــوَاهٍ عَلَـــى أيّـــامِهِم وَزَمَـــانِهِمْ وَقَـــدْ صَـــارَ قَلْـــبِي كَالغَرِيْـــبِ المجَـــاوِرِ

٢٤ أَبيـــتُ وَفِي قَلْـــبِ المتَـــيَّمِ وَحْشَـــةٌ تُقَطِّعُـــه قَطْـــعَ السِّـــيوفِ البَـــوَاتِرِ

٢٥ فَسَـــادَ فَسَـــادٌ بِالزَّمَـــانِ وغُرْبَـــةٌ وَجَهْـــلٌ تَفَشّـــى بَـــينَ بَـــادٍ وَحَاضِـــرِ

٢٦ وَصَـالتْ دُعَـاةُ الشَّـرِ مَـعْ كُـلِّ وِجْهَـةٍ وَجَـــاءوُا بِـــأنْوَاعِ الـــرَّدَى والكَبَـــائِرِ

٢٧ وَأعْرَضَـــتِ الأنْظَـــارُ عَـــنْ كُـــلِّ عَـــالِمٍ نُجُـــومِ الهُـــدَى للنَّـــاسِ حِـــينَ الـــدّيَاجِرِ

٢٨ وَرَاحُـــوا إلى أهْـــلِ الغِوايَـــةِ وَارْتَـــوَوَا أضَـــلُّوا وَضَـــلُّوْا عَـــنْ سَـــبِيلِ النّـــوَادِرِ

٢٩ بِأرْبَـــابِ جَهْـــلٍ نَـــازَعُوا وَتَصَـــدَّرُوْا كَأمْثَـــالِ بُـــومٍ فِي غِيَـــابِ الْكَوَاسِـــرِ

٣٠ وَجَـرُّوَا عَلَـى الإسْـلامِ كُـلَّ جِنَايـةٍ ... وَهَـذَا لَعَمْـرِي مِـنْ وَخـيمِ الـدَّوَائرِ

٣١ وَفِيْ كُـلِّ يَـوْمٍ فِيْ الوُجُـودِ بَلِيـةٌ ... تُحَطِّـم آمـالَ الضِّـعَافِ القَواصـرِ!

٣٢ فَأَوْشَـكْتُ أنْ أحَـدُو بِقَولَـةِ عَـارِفٌ ... وَقَـد مَـرّ بِي شِـعْراً بِـبِعْضِ المِصَـادِرِ

٣٣ "فنَضْـحَكُ لِلآمَـالِ ضَـحْكَةَ وَامِـقٍ ... فَيَضْـحَكُ مِنّـا الـدَّهرُ ضِـحْكَةَ سَـاخِرِ"

٣٤ فَـوَاللهِ لَـولا اللهُ حَـافظَ دِيْنِـهِ ... لخَـارَتْ قِـوَى أهَـلِ النُّهَـى والبَصَـائِرِ

٣٥ فَسَـخَّرَ للإسْـلامِ أنْصـارَ شَـرْعِهِ ... تَصُـولُ لِـدِينِ اللهِ صَـوْلةَ ثَـائِرِ

٣٦ كَأمْثَـال شَـيخٍ شَـاعَ بِالفَضْـلِ ذِكْـرُهُ ... وَذَاكَ هِـلالُ العِلْـمِ شَمْـسُ المِحَاضِـرِ

٣٧ هُـوَ الشَّـيخُ زَيـدُ المـدْخَليِّ فَـزِدْ بِـهِ ... مِـنَ العِلـم كَنْـزاً مِـنْ ثَمِـينِ الجَـوَاهِرِ

٣٨ فَـرَابَطَ فِيْ التَّعْلِـيمِ مُعْظَـمَ وَقْتِـهِ ... وَهَيـأَ للطُّـلابِ كُـلَّ القَنَـاطِرِ

٣٩ وَهُـمْ حولَـه مَـا بَـينَ غَـادٍ وَآيِـبٍ ... وَمِنْـهُ ارْتَـوَوْا رِيِّ الهِيَـامِ الضَّـوَامِرِ

٤٠ وَلا زَالَ في قَمْـعِ الغُـواةِ مُرَابِطَـاً ... يَصُـولُ بِمِبْتَـدِعٍ جَهُـولٍ وَفَـاجِرِ

٤١ فَألْبَسَـهُمْ ثَـوْبَ الهَـوَانِ فَـأدْبَرُوا ... مِـنَ الـذُلِّ إدْبَـارَ النَّعَـامِ النَّـوَافِرِ

٤٢ بِتَصْـنِيفِهِ نَظْمَـاً وَنَثْـرَاً عَلِـيْهُمُ ... شَـدِيدٌ كَضَـرْبٍ بِالرِّمَـاحِ العَـوَاتِرِ

٤٣ وَصَـنّفَ فِيْ كُـلّ العُلُـومِ مُصَـنَّفَاً ... وَخلّـفَ عِلْمَـاً مِـنْ جَمِيـلِ المـآثرِ

٤٤ وأنْشَـأ دَارَاً للّعُلُـومِ قِوَامُهَـا ... عَلَـى كُتُـبِ أهْـلِ العِلْـمِ خَـيرِ الـذَّخَائرِ

٤٥ فَأحْيَـا رُسُـومَ العِلْـمِ مِـنْ بَعْـدِ فَتْـرَةٍ ... وَجَـدَّدَ دِيـنَ السَّـالِفِينَ الغَـوابِرِ

٤٦ فيَـا رَبّ يَـا مَـوْلاي جُـدْ بِثَوابِـهِ ... وَزِدْ عُمْـرَهُ فِيْ عِـزَّةٍ وَمَيَاسِـرِ

٤٧ وَثبّتْـهُ بالتَّوحْيـدِ يَـا وَاسِـعَ العَطَـا ... وَصُـنْهُ إلهـي مِـنْ جَمِيـعِ المخَـاطِرِ

٤٨ وَآخِـرُ مَـا يَحْلُـو الكَـلامُ بِخَتْمِـهِ ... صَـلاةً عَلـى المخْتَـارِ أطهَـرِ طَـاهِرِ

٤٩ كَـذَا الآلِ والأصْـحَابِ مَـعْ كُـلّ تَـابِعٍ ... وَأنْصَـارِ دِيـنِ اللهِ مِـنْ كُـلِّ ذَاكِـرِ

بدر بن علي بن طامي العتيبي

مدير الدعوة والإرشاد بمحافظة الطائف

عضو الجمعية العلمية السعودية لخدمة السنة وعلومها